خمارة القط الأسود

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

كلمة غير مفهومة

تثاءب المعلم حندس طويلا وهو يزيح الغطاء عن جسده. وجلس فى الفراش معتمد بذراعيه على ساقيه، متقوسا تحت وطأة غم لاحت آياته فى وجهه الممتلئ العريض. ورأى زوجته واقفة وسط الحجرة وهى تجمع شعرها المشعث تحت منديلها البنى، فقال بنبرة ناعسة:

- حلم غريب.

التفتت نحوه باهتمام قائلة:

- خيرا إن شاء الله.

- طول الليل مع حسونة الطرابيشى.

تجلت فى عينى المرأة نظرة فارغة من كل معنى فراقبها بعينى صقر تطلان من سحنة أطبقت على أديمها آثار طعنات وجراح قديمة ثم قال:

- حسونة الطرابيشى!.. أنسيت الرجل الذى طمع يوما فى

الفتونة؟

ندت عنها آهة وتمتمت :

ـ نعم . . يا له من عمر . .

ـ حوالى خمسة عشر عاما . .

ـ وماذا رأيت؟

ـ رأيته كما رأيته آخر ليلة فى الخيامة، صريعا تحت قدمى والدم يغطى فاه وذقنه وأعلى جلبابه!

ـ أعوذ بالله .

ـ وردد آخر كلماته «سأقتلك يا حندس وأنا فى القبر» .

ـ أعوذ بالله .

ـ رأيتنى بعد ذلك أجالسه فى مكان غير محدد المعالم، وكنا نضحك عاليا كما كنا نفعل قبل أن تفرق بيننا البغضاء، وقال لى معاتبا أنت قتلتنى فقلت له وأنت توعدتنى بالانتقام فضحك طويلا ثم قال انس كل شيء، أنا نسيت، وأمس زرت ابنى وقلت له لا تفكر إلا فى الحياة ودع الموت والأموات للخلق، وجعلنا نضحك حتى استيقظت .

تجمدت ملامح المرأة، وغشيتها سحابة مظلمة من الذكريات، فقال جندس بصدر منقبض :

ـ أنت خائفة!

ـ أبدا، ولكنى أتساءل عن تفسير للحلم.

ـ المهم أنه ذكرنى بأشياء نسيتها.

سألته عن «الأشياء» بهزة من رأسها وهى غارقة فى التفسير فقال:

ـ ذكرنى بما قيل يوم دفن حسونة من أن زوجته رفعت طفله فوق القبر ونذرت إن عاش الطفل أن يكون مقتلى على يديه.

ـ ولكن زوجة حسونة اختفت منذ دفنه.

ـ نعم، ولعل طفلها اليوم فى عز الشباب!

قالت ملتمسة الطمأنينة له ولنفسها:

ـ أنت سيد الحى، رجاله رجالك، وربنا الحافظ.

فقال مقطبا:

ـ أنا لا أبالى بعدو ما دمت أعرفه، أما الذى لم أعرفه ولم أره!

جلست المرأة على كنبة واجمة فقال:

ـ الحلم يفسر بعكس ظاهرة وهذا يعنى أنه يحرض ابنه على الانتقام.

ـ كيف وهو ميت من خمسة عشر عاما؟

ـ كما خاطبنى الليلة الماضية!

غالبت المرأة نكدها بابتسامة وقالت:

ـ حينا معروف لا يختفى فيه غريب، وأنت سيده، والله هو الحافظ.

وغادر المعلم حندس منزله يسير وسط هالة من الأتباع ويتقدمه سائق الكرته. ومال من درب الأعور إلى قهوة حلمبوحة فجلس على الأريكة التى لا يمسها أحد غيره. وراح المعلم يروى حلمه لأتباعه فضحك طمبورة باستهانة وقال:

ـ أى أم تحرض ابنها عليك يا معلم؟

ولكن سمكة كان أميل إلى الحذر وهو يقول:

ـ حارتنا يقتل بعضها البعض منذ خلق الله الأرض وما عليها.

ـ لكن أحدا لم يسمع عن ابن حسونة ولا أمه.

فقال القهوجى عنارة عن ابن حسونة ولا أمه.

فقال القهوجى عنارة وكان لحندس بمنزلة الأب:

ـ هذا يعنى أنه يستطيع أن يوجد فى أى وقت وفى أى مكان!

وضحك المعلم حندس معلنا عن استهتاره فقال طمبورة:

ـ نحن حولك كالجدار.

ولكن عنارة قال وهو يرمش بعينيه الدامعتين المرمودتين:

ـ الحلم له معنى، إنه يذكرك بما نسيت!

وذاع الحلم فى الحى كله. وكثرت التأويلات. وتوثب الرجال للبطش. وجعل حندس يذهب ويجىء وكأنه لا يبالى شيئا.

وذات مساء جاء القهوة الشيخ درديرى وهو مقرئ ضرير، يتعيش من التلاوة فى المقاهى والغرز وتروج سوقه فى المواسم. صافح المعلم ثم تلا الصمدية وقال وهو يتخذ مجلسه بين يديه:

- يا معلم، إن كنت تريد ابن حسونة فأنا أعرفه!

سرعان ما تركزت فيه الأعين وأحدق به الرجال. حاز فى ثوان أهمية لم يحظ بعشر عشرها طيلة عمره البالغ الستين. وانتبه إليه حندس لأول مرة فى حياته وكأنما يكتشف عينيه المطورتين وجبينه البارز كمشربية. وسأله:

- متى عرفته؟

- منذ عام أو أكثر.

- كيف؟

- صدفة وأنا أتجول بين المقابر.

- أين يقيم؟

- لا أدرى، ولكنى دعيت للقراءة فى المدفن بالمجاورين فى موسم وهناك عرفته كما عرفت أمه.

- ما اسمه؟

- لم يناد به على مسمع منى.

- ولم تر وجهه طبعا!

- ولكنى أعرف صوته!

يوجد صورة

أنا لا أبالى بعدو ما دمت أعرفه

سأله بازدراء :

ـ متى زرت المدفن آخر مرة؟

ـ فى عيد الفطر الماضى .

ـ ماذا يقولون وهما فى المدفن؟

ـ يستمعان للتلاوة أو يتبادلان حديثا لا يستحق الذكر .

ـ ألم يجر الحديث مرة عن الميت؟

ـ لم أسمع .

نفخ قائلا :

ـ لم تقل شيئا يا أعمى !

ولكن عنارة قال بنبرة ذات مغزى :

ـ قال إنه يعرف المدفن .

ولما ذهب الشيخ درديرى قال طمبورة :

ـ نذهب فى العيد الكبير لنرى بأعيننا . .

ـ وبعد ذلك؟

ـ دعوا الباقى لى !

ـ أنقتله من غير أن يثبت لنا سوء نيته؟

ـ إنه لن يزيد الميتين عدا ولن ينقص الأحياء !

وفى موسم العيد تفرق حندس وأعوانه فى البقعة حول المدفن الذى دلهم عليه الشيخ درديرى . وقد ذابوا فى الزحام الذى ناءت به الأرض بمنجى من الريب وظلت أعينهم تدور حول المدفن الذى تراءى وراء سوره المتهرئ قبر مكشوف ونخلة وحيدة على حين قام بابه الخشبى فى هزال منحوت القشرة مزعزع المفاصل خليقا بأن يقتلع لدى أول لطمة قوية من الهواء . ومر النهار كله دون أن يطرق الباب طارق . وكان الشيخ درديرى يسترزق هنا وهناك ، وكلما جاء المدفن وجده مغلقا فيمضى فى تجواله . واقترب سمكة من الشيخ درديرى وهمس فى أذنه :

ـ كذبت علينا يا أعمى .

فهتف الشيخ :

ـ والله ما كذبت على أحد .

فلكزه بكوعه قائلا :

ـ أسأل الترابى ثم عد إلينا .

غاب الشيخ قليلا ثم عاد إليهم ليخبرهم بأن الترابى لا يعرف شيئا عما عاق الأسرة عن المجىء .

ـ ألم تسأله عن مسكنه؟

ـ فى باب الربع ولكنه لا يعرف أكثر من ذلك .

وبعد وقفة قصيرة استطرد الشيخ قائلا :

ـ ومن عجب أن الرجل لا يعرف اسمه ولا عمله وختم حديثه

عنه بقوله: «حد الله بينى وبينه». فلما سألته عما جعله يقول ذلك دفعنى قائلا: «توكل على الله!».

رجع الرجال إلى درب الأعور بوجوه متجهمة. وضح لهم أن الشاب غامض حقا أو أنه يحيط نفسه بالأسرار، وأنه خطير يجب أن يحسب له حساب. وتساءل طمبورة:

ـ إن يكن حقا كما يقال عنه فما الذى أقعده حتى الآن عن الانتقام؟

فقال عنارة بكآبة:

ـ لا يهمنا ذلك بقدر ما يهمنا المستقبل.

ثم وهو يعصر عينيه الملتهبتين:

ـ والأحلام لا ترى عبثا!

عند ذاك قال الشيخ درديرى:

ـ سأسأل عن مسكنه بحجة الاطمئنان عليه.

وغاب الشيخ يوما كاملا ثم رجع ليعلن فى ظفر اهتداءه إلى بيت الشاب. قال إنه جالسه وعلم بسبب تخلفه عن زيارة قبر أبيه وهو مرض أمه. وأخبرهم بأقصر طريق إلى المسكن من ناحية الخلاء إذ لا يدرى بهم أحد. ولكن هل يقتلونه أو يكتفون برؤيته وإرهابه؟

وأدرك الأعوان من صمت المعلم أنه يترك لهم الكلمة لغرض لم يعد يخفى عليهم بحكم معاشرته الطويلة، فقال طمبورة

ساخرا :

ـ وجد المسكين مقتولا بيد مجهول!

فاعترض عنارة متسائلا :

ـ ماذا تدرون عن قوته وأعوانه؟

وتبادلوا نظرات قاسية، ثم استقر رأيهم على خطة عركوها منذ القدم.

وفى ليلة شديدة الظلام خرج حندس وأعوانه. وقد استقل هو وخلصاؤه الكرتة موسعين للشيخ درديرى مكانا عند الأقدام. وأوغلوا فى الصحراء حتى صعدوا ما يشبه التل عند مفترق تتجه طريقه الرئيسية نحو باب الربع، وعند ذاك قال السائق :

ـ لا يمكن أن تتقدم العربة قيراطا واحدا فى هذا الخراب.

غادروا الكرتة. وحثهم الشيخ درديرى على البحث عن سبيل ماء قائم على رأس منحدر طويل. وكان قائما على مبعدة أمتار منهم كما لاح شبحه تحت ضوء النجوم. وقال الشيخ :

ـ فى نهاية المنحدر يقع البيت، وهو فى عزلة إذ تحيط به الخرائب من جهتين ويحدق بالثالثة فناء واسع لوكالة، توكلوا على الله أما أنا فإنى ذاهب.

قال له حندس :

ـ انتظر حتى لا تضل الطريق فى الظلام.

فقال وهو يهم بالذهاب :

ـ الأعمى لا يضل طريقه فى الظلام .

مضوا فى الطريق متمهلين حذرين لوعورته ولكثرة ما يعترضه من أحجار ونفايات . وأحدقت بهم خرائب تفوح منها روائح عطنة وأحيانا نتنة كريهة كأنما تصدر عن جثث فى جوف الليل . وغلظت الظلمة حين بلغوا ممرا مسقوفا بغطاء لم يتبينوه تقوم على جانبيه المتقاربين جدران مبان غير مرئية فكأنهم فقدوا الأبصار . مات كل شىء فى ظلمة الممر حتى أشباحهم ، وند عن أقدامهم ارتطامات كخشخشة زواحف وعن أفواههم زفرات كالفحيح . وعلى بعد سحيق تراءى نور خافت فقال عنارة :

ـ سنطرق الباب ثم نندفع كالمصيبة ، ولا من سمع ولا من رأى .

فرددت أصوات بهيمية :

ـ ولا من سمع ولا رأى .

ثم ارتفع صوت حندس قائلا بوحشية :

ـ وينتهى الحلم !

وإذا بصرخة تنطلق من حلقه كالعواء ، وإذا بجسمه الضخم يتهاوى على الأرض . صرخوا فى صوت واحد «معلم حندس» . وتطايرت زعقات الغضب والويل . وحملقوا فى الظلمة المستحيلة ولكنهم لم يروا إلا العمى . ونادى سمكة بأعلى صوته السائق أن يحمل إليهم فانوس العربة . وتأوه حندس فساد الصمت ، ثم قال

بصوت متقطع محشرج :

ـ عنارة . قتلت . . بينكم . .

وعلى ضوء الفانوس تبدى المعلم حندس منكفئا على وجهه ، عارى الرأس ، مكشوف الساقين ، ودمه ينساب بطيئا بين الحصا . قتلهم الغيظ وأذلهم الحنق . لم يشعروا من قبل بعجز مهين كهذا العجز ، فهم لم يرفعوا نبوتا ولا سلوا ختجرا ولا قذفوا طوبة ، وخطف الرجل وهم يبادلونه الحديث . وأين القاتل ، بل أين منزله؟ . . وجدوا مكان المنزل ضريح ولى فى خلاء تشتعل فى كوة بجداره شمعتان . ولم يشعر أحد منهم بالقاتل عند تسلله ولا عند انفلاته ، لم يسمع له حس ، ولا عثر له على أثر .

الصَّـــدَى

اعـتـمـد على عـصـاه وانتظر . تلاشى رنين الجرس ولا صـوت يجىء من وراء الباب كأن الشقة خالية . بعد لحظة سينفتح الباب عن الوجه القديم . الوجه الذى لم تره منذ عشرين سنة . والزمن لم يطمس صورته القديمة الباكية المتصبرة المتأففة . وهى وإن تكن اليوم فى الثمانين فما أكثر المعمرات فى أسرتنا . أما الرجال؟! . . الرصاص والمآسى والأعين التى لا تذرف الدمع .

وسمع صـوت شبشب يزحف فـوق البلاط فتـهيأ للمفاجأة وعواقبها ولكن الشراعة فتحت عن وجه ذابل عليل، أم محمد الخادمة . ارتاح لذلك ونظر إليها من عل وهى تتطلع إليه بحذر ونظر كليل :

ـ من؟

ـ افتحى يا أم محمد .

ـ من حضرتك؟

قالتها بلهجة من لا ينتظر زائرا على الإطلاق، بيت مهجور كأن القطيع كله لم ينطلق منه إلى الساحات الدامية.

ـ حقا نسيتنى يا أم محمد؟

رمشت عيناها طويلا ثم أضاءت بانتباهة مذهلة:

ـ سيدى عبد الرحيم!.. يا خبر!

دخل وهو يحبك عباءته السوداء حول قامته الفارعة، ثم ترك لها يده تلثمها بحرارة قائلة:

ـ من يصدق.. من يصدق..

ثم وهى تضبط أنفاسها:

ـ سأذهب لاخبر ستى.

فاعترضها بعصاه قائلا:

ـ لا.. أين حجرتها؟

أشارت إلى باب فى نهاية الصالة الممتدة إلى يمين الداخل وقالت:

ـ يجب يا..

فقاطعها بحزم وهو يسير:

ـ أعرف ما يجب، أعرف كل شىء، ولا أريد أن يزعجنى أحد.

دخل الحجرة متمهلا وبلا صوت وبقلب يزدرد انفعاله بصلابة معهودة، ثم أغلق الباب وراءه. وقف فى وسط الحجرة وهو ينظر إليها بتمعن واستطلاع. ورغم غلظته تأثر بعض الشىء تسربت إلى أنفه الأفطس رائحة غريبة وأليفة معا، كما تنبلج ذكرى ضائعة، فدفعته إلى أحضان الماضى. ها هو يعود إلى صميم نفسه. وتربعت المرأة على كنبة قابضة بأصابها على مسبحة طويلة لامست شرابتها البساط، ولكنها لم ترفع رأسها إليه وكأنها لم تشعر له بوجود. وقد تلفعت بخمار غامق لم يتضح لونه فى جو الحجرة الغامض المحجوب عن النور بنافذتين محكمتى الإغلاق. إنها تتجاهلك بلا شك. لعلها سمعت ما دار من حديث فى الصالة فتأهبت لتجاهلك. لا تعجب لبرودها فكم قاست وكم عانت. وهى على أى حال أم المآسى فكيف تخلو من روح العنف!.. وماذا توقعت عندما اضطرتك الحال إلى العودة؟.. وابتسم ليلين من قسوة وجهه الداكن كجلد مدبوغ ولكنها لم تأبه له ألبتة. وراحت تسبح بصوت مهموس ثم تثاءبت!.. اختفت الابتسامة من وجهه. إنها أشد مما تصور. إنها أقسى من تاريخ الأسرة الدامى. لكننى عنيد أيضًا. لم أقطع الوادى لأسلم بهزيمة عاجلة. توقعت سخطا ولعنا وبكاء ومرارة ولكن ليس الصمت والتجاهل. تلك صدمة أجلت فكرة تقبيل اليد إلى حين. والانسحاب أبعد ما يكون عن الخاطر. لم يبق إذن إلا طريق وسط. قال بهدوء:

ـ نهارك سعيد يا أمى.

واقترب خطوتين مادا يده. ولكنها لم تشعر له بوجود. صدمة أشد من الأولى. الماضى بكل مآسيه لن يخفف من قسوة اللطمة. حق أنك آخر من يعجب لقسوة ما. وعليك أن تؤدى حساب عشرين عاما من المقت. وهى كما ترى لا تبرأ من صفة الضجر. وابتسم ابتسامة مفجعة وهو يتقهقر نحو الفراش ثم جلس على حافته. وضع طربوشه على الوسادة واعتمد براحته على العصا. ما دمت قد رجعت إلى مهدك فلا بأس من الجلوس على الفراش.

- الحق إنى لم أتوقع مقابلة لطيفة ولكنى لم أتصور هذه القدرة على الإعدام!

وضحك ضحكة قصيرة ميتة وقال:

- نحن أسرة الأنياب والأظافر ولكنى مشوق إلى معرفة النهاية.

رفعت رأسها قليلا ربما لتريحه ثم عادت إلى الانطواء على المسبحة فى عالم لا يشاركها فيه أحد.

- من يدرى فلعل حضورى خطأ من أساسه ولكنى مصمم على ألا أندم عليه.

لا كلمة.. لا حركة.. لا اهتمام.

- أتتوقعين أن أعتذر؟.. أن أعترف بخطأ.. أن أعلن الندم؟.. أنت تعرفيننا خيرا مما نعرف أنفسنا، والكلام لم يعد يجدى، وكلانا قد تغير كثيرا ولكن صحتك مازالت بحمد الله جيدة، لعلها أفضل من صحتى.

العبارة الأخيرة غير قابلة للتجاهل إلى ما لا نهاية. سوف تدب حركة. أجل ستنفجر أولا فى غضب وتصب اللعنات ثم تلين رويدا وأخيرا ستسمع هذه الجدران دعاء!

ـ أعلم ماذا يقول صمتك، جاء اللص، جاء المجرم، جاء أخيرًا، بالله خبرينى هل تطلبت حياتك هنا مالا أكثر مما لديك؟

وركبته رغبة يائسة فى المزاح فتساءل:

ـ هل أردت مالا لتجربى حظك فى الزواج من جديد؟

وضحك عاليا. لكنه ضحك وحده. وحده. لله هذه القدرة الجهنمية على الإعدام.

يوجد صورة

الماضى بكل مآسيه لن يخفف من قسوة اللطمة

ـ ما مضى قد مضى، الدم والأرواح مضت، لسنا أول مجموعة دموية ولن نكون آخرها، وكم هلك لى من أعزة، وقطنت فى صدرى رصاصة إلى الأبد، ولا تعدى بقايا الطعنات فى الفخذ والبطن والرأس، وكنت تبكين وتمزقين شعرك وكنا وما زلنا نعانى حياتنا، ما الفائدة؟ . . ما مضى قد مضى.

ألم تعاهد نفسك على تجنب الذكريات؟ . . ولكن كيف؟ . . إنها مستمرة فى قتلك. وأنت لم تقطع الوادى من أقصاه لتجلس أمام تمثال من حجر.

ـ إذن تودين أن أذهب! ، لا أعجب كثيرا ولكنى أتيت، وهذا جزء لا يتجزأ من الحكاية، ألم تغضبى بما فيه الكفاية؟ ، لعنت الأبناء حتى جف صوتك، هالك أن يخرج من بطنك هذا العدد العديد من الأعداء، ولكنها بطنك على أى حال، وخبرينى بالله كيف مات أبى؟ ، وأعمامى، وقيل لى لماذا تذهب بعدما كان ولكن لا أحد يعلم بسرى سواى، وأنا أومن بالغيب إيمانى بالدم، والوقت قد فات فيما بدا لهم ولكنى رأيت رأيا آخر، غير أنى أود أن أعلم حتام تتعلقين بالصمت؟ !

آه . . فلتعجب بها بقدر ما تحنق عليها. ما أصدقها لنا من أم. لكنك تمثل عناد من تربص يوما فى حقل الذرة ثمانى ساعات دون حركة. وكم غنيت فوق أشلاء الجثث. وأيدى الإخوة التى قطعتها. وقولك الساخر عن ابنى عميلك فى البلد «يتحابان رغم أنهما أخوان!».

ـ لا تطردينى دون كلمة، اسألينى على الأقل عما جاء بى،

الغبار لم يعد يطلق والشوك أدمى الأقدام، وأعترف بأن نفسى نازعتنى إلى مأوى منسى لأسترد فيه أنفاسى، شعور طبيعى بالحاجة إلى الظل بعد احتراق لعين، وسمعت إن صدقا وإن كذبا أشياء وأشياء عن غرابة أطوار الأم، أى أم كما قالوا، ومع أن آخر صورة احتفظت بها منك كانت عابسة باكية لاعنة إلا أنى غامرت بالتجربة.

يارب السماوات!، ها هى تتثاءب مرة أخرى. من الضجر لا من التعب. ولكن طلاء القسوة سيتقشر عاجلا أو آجلا ثم يتساقط. والأحزان قد أنضبت فى نفسك موارد سخية ولكنى أجلس أمامك بشخصى وشهادة ستين عاما من البنوة. وإن تكن بنوة مفلسة جدباء.

ـ أصغى إلى، أنا لا أسافر عبثا. هكذا خلقت، قيل لى لماذا تذهب بعد ما كان ولكن لا أحد يعلم بسر ذلك سواى، ومذ قدمت وأنا أتكلم وأنت تقتلين، سأذهب أقسى مما جئت، والساقية تدور ولا تحمل من باطن الأرض إلا العلقم، لم يجىء الأبناء خيرا منا، هيهات أن أعترض، اليوم يقطبون ويتبادلون نظرات ممتعضة، وغدا ينطلق الرصاص، ها أنا أرى المستقبل بعين الماضى الدامية، واليوم تجمعهم صورة عائلية، كما جمعتنا صورة يوما ما، ولكن ماذا عن الغد؟. . وكان أن ضجرت، ضجرت حتى الموت. ولكننا نكره الكلمات الطيبة ولا نصدقها، وإذن فلتمض القافلة مثيرة للغبار ولرشاش الدم. ولكن تمادى بى الضجر حتى وقعت، وبعد عشرين عاما من العقوق والنسيان

ذكرنى الضجر بك! . . ولكن ماذا أريد؟ ، أن أرجع إليك؟ . . ولكن ماذا وراء ذلك؟ ، ونحن نخجل من العواطف ونتباهى بالكلمات ، غير أنى أصبحت ذات يوم مقوس الظهر أزحف على أربع ، وكتمت الألم خشية الشماتة ، لا شىء سوى الشماتة ، وما جاء الظهر حتى أعلمنى الطبيب بأنى مريض بكل معنى الكلمة ، ولست أصدق الأطباء ولكنى لم أجد مفرا من تصديق الألم ، وخصوصا وأنه لا يؤلمنى إلا الألم الأليم ، وانزويت فى حجرتى أياما ، وأحدقت بى نذر الشقاق بين الأبناء حتى رأيت صفحة المستقبل دامية كالصفحة المنطوية ، وتجهمتنى الدنيا ، وأبيت فى الوقت نفسه تذكر كلماتك القديمة ، ولكنى رأيت حلما .

آه هل تستسلم لليأس؟ . . وما هذا الألم الذى يدب فى أعماقك أهو نذير نوبة جديدة؟ . . إذن ماذا تفعل العقاقير ولم هى ليست حاسمة كالرصاص والفأس؟ . . وأنت أيتها العجوز ماذا بالله يمكن أن يحركك؟ . . أأقول إنك أقسى منا جميعا؟ . . لا تضطرينى إلى هزك حتى تفيقى . إنى إذا صرخت تقوضت الجدران!

ـ حلمت حلما فلماذا لا تسألیننی عما رأيت؟ ، هل فقدت ولعك بالأحلام وتأويلها؟ ، اعذرينى إذا اعتقدت بأننا إنما ورثنا القسوة عنك ، عنك أنت أكثر مما ورثناها عن أبى أو أى جد غابر ، لا أحد يمكنه المحافظة على بروده كما تفعلين ، وجهك لا يفصح عن شىء ، أنت لا تتجاهلين وجودى ولكنك تجهلينه ، تجهلينه بكل معنى الكلمة ، أنت لا تسمعيننى ولا ترييننى من أين لك هذه

القوة كلها؟

وانتفض واقفا فى انفعال. ذهب مرة وجاء ثم وقف قبالتها معتمدا على عصاه بيمناه متجهم الوجه:

ـ أهذه طريقتك فى العقاب، لا شك أنك تخيلت هذا اللقاء وتمنيت وقوعه وانتظرته طويلا، قلت سيجىء يوما، سيجىء إذا ألمت به كارثة أو صرعه مرض، سيذكر عند ذاك أمه المنسية ويهرع إليها سائلا العفو والبركة، وعند ذاك أجد فرصتى للانتقام، سيكفر عن السرقة والنهب والاعتداء والقتل، عن دموعى التى لم يجففها أحد، عن استغاثاتى التى قوبلت بالنهر، عن حبسى الطويل فى هذه الغربة، هذه هى الحقيقة، وإنك لأمنا حقا، فأسلوبك هو أسلوبنا وقسوتك هى قسوتنا، وفى بعض أويقات الإرهاق والملل كنت أتساءل عما شكلنا بهذه الصورة الوحشية التى لا تعرفها الكلاب ولا الحمير ولا البقر ولا الجاموس، وها هى الحقيقة تتكشف لى، إن السيل الذميم المنصهر ينحدر منك يا امرأة!

وضرب أرض الحجرة بعصاه مرتين حتى طقطق زجاج النافذة. وإذا بأم محمد تنقر على الباب المغلق مستطلعة مستأذنة فصاح بها غاضبا «اذهبى»، ثم التفت إلى المرأة التى واظبت على التسبيح فى هدوء وقال:

ـ كفى، كفى عن التسبيح، نحن لا نعرف الله، ولا نذكره إلا عند شراء النقل أو صنع الكعك، الحق أننا لا نعرف الله ولا نريد أن نعرفه، والحلم الذى رأيت كان حلما كاذبا، وما كان ينبغى أن

أحلم، أو أن أكترث للحلم إذا حلمت، وما كان ينبغى أن أمرض، على الذين يعيشون للرصاص والدم ألا يمرضوا أو يحلموا، وعليهم ألا يبحثوا عن راحة إلا فى الموت، عليهم أن ينتحروا قبل أن يقتلوا، فأى شيطان دفعنى إلى زيارتك يا امرأة؟

ولما لم تخرج عن تجاهلها الرهيب قطب فى عزم، وتقدم منها خطوتين، ثم مد يده فأمسك بيدها. ارتفع رأسها متراجعا فى دهشة. تركت المسبحة فى حجرها وأراحت يدها الأخرى على يده. تحسست ظهرها الجاف المعروق ومنابت الشعر الأبيض عند أصول الأصابع. ارتسم الفزع فى وجهها ثم ندت عنها صرخة وصاحت:

ـ من؟.. من؟.. أم محمد!

وسرعان ما ألمت بها نوبة سعال، ثم عادت تصيح بصوت مخنوق شرق:

ـ أم محمد.. أم.. محمد..

انفتح الباب فى دفعة متمردة وهرولت المرأة إليها فى اللحظة التى أخذ هو فيها يتراجع فى وجوم شديد. احتوت الخادم يد سيدتها المرتعشة بين راحتيها فى حنو ثم راحت تربت ظهرها النحيل فى إشفاق. قال الرجل كالمعتذر:

ـ لا أدرى ماذا أفزعها!

فقالت الخادم بصوت خائف:

ـ أردت أن أقـول لك فلم تسـمع لى يا سيـدى ثم منعـتنى من الدخول!

لبس طربوشه وتناول عصاه وهو يقول:

ـ ماذا أفزعـها؟ . . كنت طوال الوقت أتودد إليـها، وكـان أملى كبيرا فى أن تلين إذا رأتنى بين يديها.

أرخت الخادم جفونها وهى تقول بحسرة:

ـ يا سيدى إنها لا ترى!

اتسـعت عيناه الغـامضـتـان فى ذهول وراح يتـفحص أمـه وهو يقول:

ـ تعنين . .

ـ نعم يا سيدى إنها لا ترى . .

وحل بالحجرة خرس مقدار دقيقتين ثم تمتم:

ـ لم أتصور ذلك، النور خافت كما ترين . .

ثم بنبرة مرة وكأنه يحادث نفسه:

ـ ولكنى حدثتها طويلا فتجاهلتنى على نحو أليم.

قالت الخادم بصوت منكسر:

ـ يا سيدى إنها لا تسمع!

بذهول أشد:

ـ تعنين . . ؟

ـ نعم يا سيدى، إنها لا تسمع . .

لطمه الفهم لطمة مفزعة أدارت رأسه :

ـ كلية؟

ـ نعم . .

ـ أإذا صرخت . .

ـ لا فائدة يا سيدى .

ـ لا بصر ولا سمع ؟

ـ لا بصر ولا سمع .

ـ يا ألطاف الله متى حدث ذلك؟

ـ من أعوام يا سيدى، بدأ أمر الله بالعينين، ثم تلاه السمع، ولم ينفع طب الأطباء .

تردد مليا ثم تساءل فى حرج واضح :

ـ ألم تكن هناك طريقة للاتصال بى؟

ـ أردت ذلك عقب إصابة العينين ولكنها منعتنى، منعتنى بشدة ورجاء معا، فاحترمت رغبتها إلى النهاية .

لم يكن الموقف كما تصورت ولكنه فى الحقيقة أفظع . وأنت شريك فى الجناية لا مفر . جئت تتخفف من أثقالك فضاعفتها

أضعافا مضاعفة . وها هى أنفاسها تتردد على يدك ولكنها أبعد من نجم . كالموت غير أنه ينضح بالعذاب . وها هو الصمت وها هو الشد . وعليك أن تؤول حلمك بنفسك أو سوف يبقى الحلم بلا تأويل .